وعي جديد

بقلم الدكتور شوقي ضيف

إن هذه الروح العربية العظيمة التي تجلت في معركة مصر الرهيبة قد أخرجت وعي العرب من حيز القول الى حيز الفعل، فاذا الشعوب العربية كلها جسد واحد يألم لألم اي عضو فيه ، ويتداعى له في كل جانب وكل مكان

فلم تكد مصر تدخل المعركة وتمضي فيها حتى تجمع حولها العرب ، كلٌّ يود لو يساهم معها ضد طغيان المستعمرين ، بل كلٌّ يود ان يفديها بكل ما يملك من نفس ومال .

وهي ظاهرة نحمد لهذا الخطب ان جلاها ، ونؤمن بأن نتائجها ستكون بعيدة الأثر في مستقبل الشعوب العربية جميعاً وما تريد من سيادة وعزة وحرية.

وجميعنا نعرف قصة العربي القديم الذي أراد ان يوصي أولاده بالتعاون والتآزر فأمرهم ان يجمعوا طائفة من العصي ، وامر أقواهم بأساً أن يحطمها دفعة واحدة فلم يستطع ، حينئذ اعطاه عصاً واحدة ، فحطمها تواً ، وقال الأب الشفيق الحاني على اولاده: هكذا انتم إن تجمعتم لم يستطع أحد ان ينال منكم ، وإن تفرقت اهواؤكم واختلف بعضكم على بعض أمكن لكل شخص ان يهدمكم فرداً فرداً فلا تقوموا أبدا.

وقد كنا في القرن الماضي متباعدين، وكان كل شعب لاهياً عن اخيه لا يفكر في الجامعة العربية الوثقى التي تجمعنا، فاستطاع المستعمرون الغاشمون أن ينزلوا في ديارنا ويحتلوا أوطاننا وطناً وطناً من المحيط الاطلسي الى الخليج الفارسي.

وكافحت مصر المستعمر الغاشم وتبعتها البلاد العربية وحصلنا على الاستقلال ، وحصلت عليه بلدان شقيقة ، وتنبه فينا تواً وعي العروبة ، لأننا احسسنا بكياننا ووجودنا احساساً كاملا ، والانسان اذا اكمل احساسه انطلق تواً يحس بعلاقاته وروابطه مع جيرانه في وطنه الكبير.

وامتد بصرنا ، فاذا وطننا ليس هذه البقعة الصغيرة التي تسمى بسوريا او فلسطين او مصر او العراق او السودان او تونس او الجزائر او مراكش او لبنان او اليمن او حضرموت او الأردن او الجزيرة العربية، وانما هو كل هذه البقع الكريمة فهي جميعها وطننا وهي جميعا ديارنا وهي جميعاً أهلنا وآباؤنا وابناؤنا واخواننا.

وتعمق هذا الشعور في نفوسنا وتغنى به شعراؤنا وخطباؤنا وكتابنا فنحن جميعاً بلد واحد يشترك في تقاليد ومواريث واحدة . ولم يكن شعورنا بذلك مفتعلا ، بل هو شعور يتجمع فيه تاريخنا وتراثنا وكل ما صنعه اباؤنا وأسلافنا.

فنحن امة واحدة ، بل نحن نفسية واحدة وعقلية واحدة ، تربطنا لغة واحدة تضم الفم الى الفم والروح الى الروح والعقل الى العقل والنفس الى النفس .

وتأمل في هذا التراث الفكري الذي نتعلمه في مدارسنا ونقرأه في بيوتنا وأوقات فراغنا فهو تراث واحد تعاونت فيه البلاد العربية جميعاً فما يكتبه المصري والسوري والفلسطيني والمغربي والسوداني واللبناني ، كل ذلك نقرأه ونفهمه جميعاً ويؤثر في حياتنا .

نحن شركة مساهمة ، كل له فيها حظه ونصيبه ، هكذا نحن في الحديث وكنا كذلك في القديم ، فما كتبه مالك فقيه المدينة في الحجاز عنت له وجوه في الشام ومصر وبلاد المغرب والأندلس والسودان والعراق وكذلك ما كتبه الشافعي وابن حنبل وأبو حنيفة والأوزاعي . وما كتبه محدثو العراق انتشر في جميع الآفاق ، وكتاب سيبويه البصري في النحو هو اساس كل ما كتب بعد ذلك في الأقاليم العربية القريبة والبعيدة داخل هذا العلم . وقل ذلك في الفلسفة والبلاغة والنقد والعلوم المختلفة.

وهذه مقدمة ابن خلدون المغربي تجدها في بيت كل مثقف وتجد معها رسائل ابن حزم الأندلسي وما خلف من بدائع الفكر ، وقل ذلك في جميع مفكرينا الذين ظهروا في العصور الوسطى . وارجع الى كتب التاريخ ، فستجده تؤرخ لهذا العالم العربي جميعه لا تفرق بين بلد وبلد ولا بين وطن ووطن ، لأنها تعرف او يعرف كاتبوها أنها جميعه وطن واحد.

وحتى اذا تخصص مؤرخ ببلد واحد كمصر مثل ابن تغردى بردى في كتابه (النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة) وجدناه يضم الى تاريخه تاريخ البلدان العربية الأخرى وما وقع فيها من احداث ، فتاريخ مصر في رأيه إنما هو جزء من تاريخ العرب الكلي وركن من اركانه.

وكان لا يتم لعالم في هذا المجموع الكبير علمه الا اذا رحل الى البلدان الأخرى وأخذ عن علمائها ، ومن ثم كانت هذه الرحلة الدائرة التي لا تكاد تنتهي في تاريخنا العلمي . واقرأ في تاريخ علماء الأندلس مثلا فستجد كثرة مشهوريهم وفدت على مصر ودمشق وبغداد ومكة والمدينة تتلقى عن العلماء ، وستجد طائفة من علماء المشرق رحلوا الى الاندلس والمغرب يعلمون ويدرسون للطلاب ، وهكذا في كل اقليم عربي نجد العلماء فيه يرحلون ويعودون الى بلادهم ويرحل اليهم الطلاب من اقاصي الأرض ، فالعلم شركة بينهم ،وهم جميعاً يتعاونون فيه؛ وقد يؤلف عراقي او اندلسي كتاباً فيشرحه مصري ، وكم من كتاب شاع تدريسه والتعليق عليه في بلد ، وهو لعالم من بلد آخر ، كما هو معروف عن الفية ابن مالك الأندلسي التي لا تزال تدرس في الأزهر وفي البلاد العربية المختلفة . وانظر مثلا الى كتب النقد العربي التي نتداولها في عصرنا فستجد كثرتها لعراقيين مثل عبد العزيز الجرجاني في كتابه «الوساطة» وقدامة العراقي في كتابه «نقد الشعر» والصولي في كتابه «أخبار ابي تمام» والآمدي في كتابه «الموازنة بين ابي تمام والبحتري» والجاحظ البغدادي في كتابه « البيان والتبيين » وهلم جرا

واذا كان العلم مشتركاً على هذا النحو فالشركة في الأدب شعره ونثره اتم واوضح ، فقد تطور الشعر والنثر من العصر الجاهلي الى العصر العباسي ، وأصبح نموذج العباسيين هو النموذج المتبع الذي تضرب على صورته اقاليم العالم العربي شعرها ، فانت مهما أبعدت شرقاً وغرباً ستجد الشعراء مشدودين الى هذا النموذج حتى في خراسان ، كما يصور ذلك كتاب اليتيمة للثعالبي وحتى في الأندلس كما يصور ذلك كتاب الذخيرة لابن بسام وكتاب قلائد العقيان للفتح بن خاقان . وستتألق أمامك في كل مكان نجوم العصر العباسي من مثل بشار وأبي تمام والبحتري وابن الرومي وابن المعتز والمتنبي ، فهؤلاء هم أساتذة الشعر في العالم العربي ، وجميع الشعراء انما يصوغون على نماذجهم ويقتدون بأعمالهم وقصائدهم

وكذلك الشأن في النثر ، فما يكتبه ابن المقفع والجاحظ وأبو حيان وبديع الزمان وابن العميد والحريري يصبح المثل الأعلى للكاتب في كل بلد من بلدان العالم العربي من خراسان الى جبال البرانس. ولا تسأل عن الأقليمية وأثرها في النثر او في الشعر ، فقد كان الكاتب والشاعر يرتفع عن ظروف إقليمه وموثراته الى هذه النماذج العباسية ويحاول بكل جهده تقليدها والضرب او الصوغ على مثالها .

لم تكن هناك اقليمية عند القوم لا في الأدب شعره ونثره ولا في العلم والفلسفة ، فقد كانوا يحسون انهم عالم واحد وأن منهم وحدة عامة مشتركة في ميادين العلم والفلسفة والأدب لا محيص لهم من التمسك بها والتقيد تقيداً دقيقاً بأصولها .

ولا تظن أن هذا كان جموداً ، انما كان احساساً عميقاً بهذه الوحدة الثقافية التي تربط بينهم والتي تدعم عالمهم ، وتجعل له صورته الخاصة التي تميزه من العوالم الأخرى.

ونحن الآن في عصرنا الحديث نجري على هذه الوتيرة فأدباء مصر وسوريا والعراق ولبنان والمغرب ادباؤنا جميعاً ، لا نفرق بين اديب بلد وآخر ، وكذلك نحن في العلم ، يقرأ كل اقليم ما ينتجه الأقليم الآخر في دوائر الثقافة والمعرفة ويبني عليه ما يكتب سواء في الكيمياء والطبيعة والطب والقانون ونأخذ من اوربا وامريكا وتختلف حظوظنا فيما نأخذ ، ودائماً نتمثل ، ثم نكتب ونؤلف ، وسرعان ما يصبح ما يكتبه إقليم عملا مشتركاً بين الأقاليم المختلفة.

اننا عالم واحد في العلم والأدب والثقافة ، لا نختلف في ذلك اثنان ، هكذا كنا قديماً ، وهكذا نحن حديثاً. وخذ هذه الأسماء في الأدب مثلا : البارودي ، حافظ ، شوقي ، خليل مطران ، خليل مردم ، بشارة الخوري ، ابو القاسم الشابي ، الرصافي ، الزهاوي ، الجواهري ، الياس أبو شبكة ، عباس العقاد ، طه حسين ، توفيق الحكيم ، المازني ، هيكل ، شبلي الملاط ، بدوي الجبل الى جم من الأسماء والأعلام فانك ستجدهم يدورون على كل لسان في مشارق العالم العربي ومغاربه.

فنحن في الحديث شأننا في القديم ، أمة واحدة ، ذات تراث مشترك في الفكر والأدب والفن ، ومع ذلك فقد كنا في السياسة وفي صراع الغاصبين لا نذكر ذلك الا لماماً ، وكأنما انسينا هذه الرابطة القوية والواشجة المتينة ، بل ان المستعمرين هم الذين عملوا على ان ننساها ، حتى نتفكك وحتى نصبح عصياً مفردة ، يلقون كل عصا على انفراد وتحقق لهم ذلك طوال القرن التاسع عشر وحقباً من القرن العشرين حتى اذا عدنا الى انفسنا ، وطالبنا باستقلالنا وسيادتنا كاملين غير منقوصين تراءى أمامنا تواً ما كان قد غاب عن

تحيّة إلى بورْ سعيدْ

يا بورْ سعيدْ يا بور سعيدْ
سماؤك نارٌ تذيب الحديدْ
وشعبُك صلبٌ قويٌّ عنيدْ
وقد أقسم الصامدون الأسودْ
بأنّ الدماء
ستغسل أرضكِ يا بورْ سعيدْ

●

يا بورْ سعيدْ يا بورْ سعيدْ
تزمجرُ باسمك كلُّ الشفاهْ
وينبض باسمك قلبُ الحياهْ
الا فارفعي شامخات الجباهْ
فأنت سحقتِ فلولَ الغزاهْ
ولن يظفروا
بتدنيس أرضكِ يا بور سعيدْ

●

يا بورْ سعيدْ يا بور سعيدْ
بلحم الغزاةِ ملأتِ الدروبْ
وزمجرتِ ساخرةً بالحروبْ
صموداً ستحميك منّا القلوبْ
وكلُّ الشعوب
تحيّي نضالك يا بورْ سعيدْ

●

يا بورْ سعيدْ يا بورْ سعيدْ
نضالك يومٌ على الدهر رائعْ
بوليس وشعب وجيش يدافعْ
وفي كل بيت وفي كل شارعْ
هو الشعب يهدر مثل الزوابعْ
فويل الغزاهْ
وعاش انتقامك يا بورْ سعيدْ
يا بورْ سعيدْ يا بور سعيدْ
صموداً لتحمي لنا أرضنا
صموداً يشرّف تاريخنا
ويحفر قبراً لأعدائنا
سلمت لنا
مثال البطولة يا بورْ سعيدْ

عمان **سليمان دحابر**

أبصارنا ، وهب الشعراء مثل حافظ وشوقي ومطران ينفخون في روحنا. والتفت رجال السياسة ، بل التفتت الشعوب ، وعادت قوافلها ادراجها ، كأنما تبحث عن شيء مفقود ، ويمضي بنا القرن العشرون ، ويأخذ شعورنا بهذه الوحدة العربية في السياسة وغير السياسة في النمو ، ولا يلبث ان يزدهر على يد قائد الثورة المصرية جمال عبد الناصر ، فاذا العالم العربي ، وقد اشتعلت فيه الوحدة القومية.

وبالأمس في معركتنا مع الانجليز والفرنسيين والاسرائيليين تجلت هذه الوحدة في اروع صورة ، فقد تم الوعي بها واكتمل ، وخرج من حيز الفكر الى حيز الفعل ، فاذا الشعوب العربية جميعا مع مصر ، واذا اسم جمال عبدالناصر رمز العزة والكرامة والسيادة العربية يتردد في كل مكان وعلى كل لسان .

أنقول مع القائلين ان هذا وعي جديد ؟ بل هو وعي قديم جديد في الوقت نفسه ، كان يكتن ويختبئ في صدورنا ، وكان لابد للحوادث ان تبرزه ، فأبرزه هذا الحادث الذي ألم بمصر ، حين غشيها الطغاة المستعمرون ، يقعقعون بسلاحهم وينصبون حبائل غدرهم ومكرهم

وعرف العرب أنها مؤامرة الاستعمار لا يدبرها ضد مصر وحدها ، وانما يدبرها ضد العرب جميعاً ، فوقفوا معنا صفاً واحداً يهدرون ويزمجرون وينتظرون إشارة من مصر كي يدخلوا الحرب ويصلوا نيرانها مع شقيقتهم العزيزة .

العرب جميعاً رؤساء وشعوباً يشد بعضهم ازر بعضهم ويقولون الحرب ، الحرب ، العدو ، العدو . لم تعد الوحدة العربية ولا القومية العربية شيئاً مكتناً ولا مختبئاً في الصدور ، بل أصبحت اعمالا وأفعالا ، وان اقباسها وأضواءها لتنير لنا الطريق الى مستقبل عظيم ، مستقبل الحرية والعزة والكرامة والسعادة .

بيروت **شوقي ضيف**